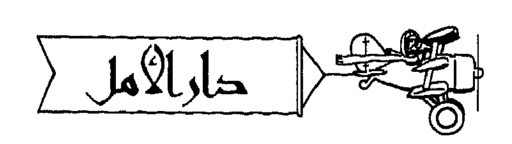

جوهر الصقلي
قائد المعز لدين الله
تأليف
أسامة حسن
دار الأمل للنشر والتوزيع
عمرو أمين

جوهر الصقلي



الناشر :	دار الأمل
العنوان :	٨ شارع عبد العزيز حامد ـ أول الملك فيصل ـ الهرم
تليفون :	٥٨٦٠٨٩٢
رقم الإيداع :	٩٧/٥٦٤٨
الترقيم الدولي :	977 - 5823 - 03 - X
طبع :	مطابع زمزم
العنوان :	العاشر من رمضان

جمع وإخراج :	أرمس للكمبيوتر
العنوان :	٣٢ ش على عبد اللطيف ـ مجلس الأمة ـ لاظوغلى
تليفون :	٣٥٦٤٤٠٤
الطبعة الأولى :	١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م

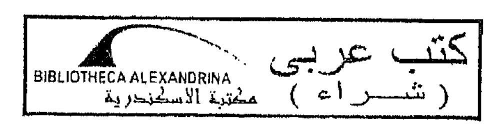
جوهر الصقلي

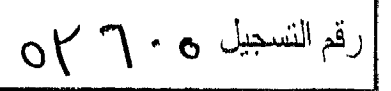
قائد المعز لدين الله الفاطمي

تأليف

أسامة حسن









المقدمة

جوهرالصقلى هومملوك رومى رباه المعزلدين الله الفاطمى . ولد بجزيرة صقلية أطلق عليه البعض لقب العبد الرومى ...

ولم تعطنا كتب التاريخ صورة واضحة عن طفولة جوهر الصقلى أو عن والده وأمه وإخوته أو أقاربه . كما لم تذكر كتب التاريخ الكثير عن كيفية اتصال جوهر بالمعز . ولم نعرف ذلك إلا من خلال الكتابات المتفرقة والأخبار المتناثرة .

وكما أن يوم وسنة ميلاده لم تذكر بدقة نجد أن ديانته الأخرى هى موضع تخمين إلا أن بعض المؤرخين يؤكدون أنه قد ولد مسلماً اعتماداً منهم على أن الاسلام قد دخل جزيرة صقلية سنة ٢١٢ وذلك قبل أن يتصل جوهر بالمعز بما يقرب من قرن من الزمان .. ولو عرفنا أن أباه اسمه عبد الله ، وهو اسم شائع بين المسلمين لرجحنا كفة أن جوهر ولد مسلماً .. كما أنجب ولداً اسماه الحسين كان صاحب مقدرة قتالية عالية ، ولقب هذا الابن فى حياة والده جوهر .. « بالقائد ابن القائد » .

فى عهد المعز لقب بجوهر الكاتب . فقد اختاره المعز ليكون كاتباً له وهو منصب خطير يؤكد كفاءة جوهر وقدرته ، وصار وزيراً . ولم يكن جوهر كاتباً فحسب . بل كان قائداً قام بفتح ما تبقى من بلاد المغرب حتى وصل إلى مدينة بالمغرب الأقصى اسمها « سجلماسة » التى ما إن علم حاكمها بمقدم « جوهر » حتى فر هارباً .. وواصل جوهر انتصاراته إلى ساحل المحيط الأطلسى .. حتى المدن التى استعصى عليه فتْحها عاد وفتحها ، وحمل قادتها فى أقفاص إلى المعز مما شجع المعز لأن يرسله على رأس حملة لفتح مصر ، ومنحه لقب القائد .

إن حياة القائد جوهر الصقلى حافلة بالانتصارات والأعمال العظيمة . تتمثل فى عصامية فريدة لإنسان تتضارب الأنباء فى تاريخه ونشأته ، ولكنه ينطلق معتمداً على ذكائه وفطنته وإصراره حتى تحققت أحلامه ، وتحقق فوق ما كان يحلم به .. جوهر من قيادة وزعامة .

المؤلف

أحوال مصر قبل
مجىء الفاطميين

مصر مهد الحضارة سبقت الدنيا كلها بالعلوم والفنون ، وشعبها متدين بفطرته يبحث عن إله يرتبط به روحياً ، لذا بحث المصرى القديم عن إله يعبده .

وكانت مظاهر الطبيعة أول ما لفت نظره ، فالشمس سر الحياة بحرارتها وضوئها لا بد أن تؤله . لذا لم يكن غريباً أن يعبد المصريون « رع » إله الشمس ، وأزوريس إله الخير، وست إله الشر وغيرها .

تعددت الآلهة فى ضفاف النيل ، وصنعت لها تماثيل ، وأقيمت لها المعابد ، ورسمت لها اللوحات .

وفى ظل الآلهة شيد المصريون حضارتهم ، لأنهم كانوا يعتقدون أن « فرعون » إله ، أو ابن إله . أوامره مقدسة ، وتعليماته واجبة النفاذ . وقد ظهر التوحيد فى مصر على يد النبى الله إدريس عليه السلام الذى حاول إخناتون إحياء ذلك التوحيد . وترك بصماته واضحة على قلوب المصريين لذا لم يكن غريباً أن تنعم مصر بالأمن والأمان ، وتصبح مطمحاً لكل المضطهدين والمفزعين فى الأرض . ولم يكن غريباً أن تهرب السيدة مريم البتول بابنها الوليد « عيسى » من اضطهاد اليهود ويصحبها فى رحلة الهروب يوسف النجار حتى يصلوا إلى مصر فيجدوا المأوى والأمن والأمان . ويسجل الله تبارك وتعالى تلك الرحلة وأمن وأمان مصر فى قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾

(سورة المؤمنون : آية ٥٠)

ولم يكن غريباً أيضاً أن يفر المسيحيون المعذبون المضطهدون فى الدولة الرومانية إلى مصر . فتتلقاهم بسماحتها ، وتفتح أحضانها لهم .

ويعيش مسيحيو أوربا آمنين مطمئنين فى مصر ، ويتناسلون وتتكاثر ذرياتهم المسيحية دون أن يصادفوا عسفاً أو اضطهاداً مثل الذى لا قوة فى أوربا فى ظل الدولة الرومانية التى كانت تحرقهم ، وتلقيهم فى الساحات الرياضية أمام الأسود الجائعة . بل إن مصر سمحت للقديس مرقس الرسولى أن يبشر بالمسيحية . وتستمر الديانات متعانقة فى حب . عبادة الآلهة المتعددة وعبادة الله الواحد الذى أرسل السيد المسيح .

وحتى عندما حدثت فتنة التوحيد والتثليث فى الديانة المسيحية . وقتل الموحدون ، وبقى المثلثون لم تنفر منهم مصر بل وسعتهم بسماحتها .

ومصر لم تكن بعيدة عن العروبة ، فقد حدثت منذ قرون سحيقة هجرات عربية إلى مصر من الجزيرة العربية حتى يمكن أن نقول إن وادى النيل تمتد جذوره العربية إلى العصور السحيقة .

وحينما جاء المسلمون لفتح مصر فى سنة ١٨ هـ على يد عمرو بن العاص قاومهم الرومان فى الفرما وعين شمس وحصن بابليون والفيوم والإسكندرية وطوخ ودمياط وغيرها من المدن ، ولكن تمكن المسلمون من إتمام فتح مصر عام ٢١ هـ بمساعدة المصريين الذين وجدوا فى المسلمين خلاصهم من عسف الرومان وأنشأ المسلمون مدينة الفسطاط ، وتمتعت مصر بالحرية الدينية فى ظل سماحة الإسلام الذين يقول ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾ (البقرة : آية ٢٥٦) وكان عمرو بن العاص قد ترك حرية العقيدة للمصريين ، وعاد إلى مصر الكثير من القبط الذين قد اضطروا إلى الخروج منها نتيجة تعذيب الرومان .

وكان تحول المصريين إلى الإسلام هادئاً ، ولم يتبعه تضحيات أو استشهاد لأن

المسلمين لم يرغموا أياً من المصريين على اعتناق الإسلام ، وقد رصد المؤرخون السرعة الهائلة والإقبال الشديد من المصريين على الدخول فى الإسلام . عكس موقفهم من المسيحية .

إذ كانت مصر من أكثر البلاد التى فتحها المسلمون إقبالاً على الدخول فى الإسلام ، وبعد أن كان دخل الجزية فى أيام الفتح الأولى بالملايين تناقصت سريعاً ، ولم تزد على مائة وثلاثين ألف دينار فى عهد الفاطميين .

وكذلك جاء مصر الكثير من الصحابة ، كما زار مصر أصحاب الكتب الستة المشهورة فى السنة ، وهم البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه. كما أن الشافعى نفسه زار مصر ودفن فيها : وقال عن الليث بن سعد المصرى : الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه ضيعوه ، لأنهم لم يدونوا فكره .

وجاء أحمد بن طولون وهو مملوك تركى نشأ فى البلاط العباسى . أرسله صاحب إقطاع مصر ليحكمها بالنيابة عنه ، وكان زوج أمه ، ولما قتل آل الإقطاع إلى يارجوخ الذى أبقى على بن طولون فى ولاية مصر وزوجه ابنته . ولما توفى يارجوخ طمع ابن طولون فى أن يحكم مصر ، وفعلاً باشر إمارته على مصر ببناء مدينة عرفت باسم القطائع ـ أى جعل لكل طبقة من جيشه قطعة خاصة لها ، وأنشأ فيها جامعاً عرف باسمه ، هو جامع احمد بن طولون ، وأنشأ أسطولاً كبيراً بلغ عدد قطعه الحربية والتجارية ألف مركب وسك العملة باسمه ، وكان عامل الخراج فى مصر فى أول عهد ابن طولون أحمد بن محمد المدبر ، وعامل البريد اسمه شقير ، وهو أحد أصدقاء ابن المدبر فتخلص ابن طولون منهما ، وأزال عن المصريين معظم المكوس . وتوفى أحمد بن طولون فى ذى القعدة ٢٧٠هـ .

فاجتمع الجند وقرروا تولية ابنه خمارويه استاذ الجيش مكان أبيه وكان لا بد أن يواجه أطماع الولاه الآخرين . فقد اتفق أميرا الموصل والأنبار مع والى دمشق على

أن يخرجوا الشام من حوزته ويسلموها للخلافة ، كان محتماً أن تدور المعارك بينهم وبينه ولم يكن أستاذا الجيش خمارويه بالأمير الضعيف ، إذ إنه أظهر شجاعة نادرة، وهزم جيوش الموفق وجيوش أميرى الموصل والأنبار ، ثم عقد معهم صلحاً على أن تكون مصر والشام لخمارويه ، على أن تدفع مصر لعاصمة الخلافة ٢٠٠ ٠٠٠ دينار سنوياً .

ولتوثيق العلاقات مع الخلافة العباسية زوج خمارويه ابنته قطر الندى للخليفة المعتضد بالله العباسي . هذه الأميرة التى اشتهرت بالجمال والحسن . إلى جانب التعقل والأدب ، وقد أعد لها خمارويه جهازاً يضرب به المثل ، ولما فرغ منه أمر بأن يبنى على رأس كل مرحلة تنزل بها قصراً فيما بين مصر وبغداد ، وقد أثرت هذه النفقات الضخمة على ميزانية مصر تأثيراً سيئاً للغاية . لذلك شعر خمارويه بشدة وضيق .

لكن لم يلبث خمارويه أن قتل على يد جاريته التى دست له السم . فتولى بعده ابنه « أبو العساكر جيش ، لكنه لم يحسن معاملة أهله فخلعوه بعد ستة أشهر ، ثم خلفه أخوه « أبو موسى » .

ولما لم يكن هناك سبيل للإصلاح ـ كان طبيعياً أن تقوم الدولة الإخشيدية (٣٢٤ ـ ٣٥٨هـ) ولقب الإخشيد معروف منذ عهد الفراعنة ، وهو أحد الألقاب التى اقتبسها العباسيون ، وقد استطاع محمد بن طغج أن يحصل على هذا اللقب من الخليفة مقابل خدمات قدمها له . وكان طغج أو الأخشيد يعمل فى خدمة الطولونيين ، وفى عهد خمارويه لمع طغج أبو الأخشيد بعد أن حقق انتصارات على الروم . لذا جعله خمارويه والياً على دمشق .

ولكن سرعان ما غدر خمارويه بطغج ومحمد ابنه ودفع بهما إلى السجن . فمات طغج فى السجن متأثراً بالغدر ، وأطلق خمارويه سراح محمد بن طغج بن

جف فولاه الخليفة العباسى دمشق بعد سقوط دولة الطولونيين ، ثم ولاه مصر فبدأ مؤسس دولة الإخشيديين ، وضم لها الحجاز ، التى ظلت مرتبطة بمصر وقتاً طويلاً .

وكانت مهمة محمد بن طغج الإخشيد صعبة ، لأنه عندما وصل إلى مصر كانت البلاد تموج بالاضطرابات من الداخل ، فى الوقت الذى يهددها فيه الغزاة من الخارج ، وكان عليه أن يبذل جهداً كبيراً حتى يعيد الاستقرار إلى مصر .

وكان عليه أن يواجه أصحاب الأطماع والطموحات من أمثال عامل الخراج ، الذى كان يطمح لتولى أمور مصر ، إلى جانب أنصار النظام السابق ، لذا كان عليه أن يحارب فى الجبهتين الداخلية والخارجية ، وقد نجح داخلياً ، واستطاع القضاء على المقاومة ، ونجح خارجياً واستطاع أن يرد الهجمات الخارجية ، ومن بينها هجمات الفاطميين عن مصر .

أما عن علاقة الإخشيد بالخلافة العباسية . فإن محمد بن رائق أمير الأمراء حاول أن يستولى على الشام ومصر . فدارت معارك بينه وبين الإخشيد ، ولكن فى النهاية عقد صلح بينهما . على أن يكون شمال الشام لابن رائق ، وجنوبه تابعاً للإخشيد ، وبعد وفاة ابن رائق استرد الإخشيد شمال الشام .. ولم ينته صراعه فى الشام ، إذ سرعان ما هاجمه الحمدانيون الذى أصبح لهم نفوذ فى بغداد ، ولهم دولة فى الموصل ، لكن الإخشيد لم يتقاعس ، وإنما أرسل جيشاً كبيراً بقيادة غلامية فاتك وكافور ، ثم سار بنفسه إلى المعركة ، وانتصر انتصاراً كبيراً ، واستطاع أن يوقع بجيش سيف الدولة الهزيمة .

وقد حرص الخليفة العباسى أن يقوى الإخشيد فمد سلطانه وولاه مكة والمدينة بالإضافة إلى مصر والشام ، وكان الخليفة بذلك يمهد للانتقال إلى مصر والتخلص من سلطة الأتراك ، ولم تمهل المنية الإخشيد ، فقد عاجلته بدمشق ودفن ببيت

المقدس . وبعد الإخشيد أجلس ابنه أنوجور فى الولاية ، وكان فى الرابعة عشرة من عمره فتولى أبو المسك كافور الوصاية عليه ، وظل ممسكاً فى يده السلطة والسلطان ـ لكن أنوجور تجاوز عهد الصبا إلى عهد الشباب والرجولة ، وكان لابد أن تتحرك نفسه لممارسة السلطة الحقيقية ، فعزم على الخروج للثورة على كافور . ولكن أمه خافت عليه . فأخبرت كافوراً وسعت للصلح بينهما ، لكن لم يلبث انوجور أن مات ، وأغلب الظن أن كافورا وضع له السم فى الطعام .

وبعد وفاة أنوجور أقيم أخوه أبو الحسن على فى الولاية ، ورغم كبر سنه إلا أن كافوراً جعل نفسه وصياً عليه ، وتمسك بالسلطان والسلطة وكما حدث مع انوجور حدث مع أخيه ، فقد أراد أبو الحسن أبعاد كافور عنه ، ولكن كافوراً كان شديد البطش ، فأمر بحبس أبو الحسن على فى قصره حتى وافته المنية ، وأغلب الظن أن كافور قد قضى عليه .

واستمر كافور يدير الولاية سنتين حتى أصبح حكمه أمراً واقعاً ، فأصدر الخليفة العباسى أمراً بتولى كافور أمور مصر وسوريا والحجاز ، وكان كافور شديد السواد وثقيل البدن .

وفى عهد كافور عاش الشاعر أبو الطيب المتنبى أربع سنوات فى بلاطه ولم تكن أيامه طيبة ، فقد كثرت فى عهده غارات ملك النوبة ، وانخفض ماء النيل وشبت النيران ، وكثرت الزلازل .

وتوفى كافور فأقيم من بعده أبو الفوارس أحمد بن على الإخشيد ، وكان صبياً صغير السن فى الحادية عشرة من عمره .

فتولى الحسن بن عبيد الله بن طغج الوصاية عليه ، وأراد أن يستبد بالأمر ، لكن الحمل كان ثقيلاً . فلم يستطع أن يسير بالبلاد إلى شاطئ الأمان وسط ظروف المجاعة القاسية التى أصابت البلاد ، وكان ذلك من الأسباب التى جعلته يفر إلى الشام ، وقد أدى ذلك إلى دخول مصر فى عصر الدولة الفاطمية .

جوهر الصقلي

جوهر الصقلى هو قائد المعز لدين الله الفاطمى الذى أثر فى تاريخ العالم الإسلامى على وجه العموم ، وفى تاريخ مصر الإسلامية على وجه الخصوص فهو الذى فتح بلاد المغرب ومصر ، وهيأ الأمر لدولة الفاطميين فى الشرق .

وجوهر الصقلى لا يقل أهمية عن حكام وأمراء مصر ومشاهيرها أمثال عمرو بن العاص وأحمد بن طولون وصلاح الدين الأيوبى والظاهر بيبرس .

قد قام بدور هام وخطير فى تاريخ مصر ، وزاد من أهميتها الإسلامية . فهو الذى أسس مدينة القاهرة بعد فتح مصر ، والتى لا تزال عاصمة مصر إلى الآن . وهو الذى بنى الجامع الأزهر الذى صار أقدم جامعة إسلاميةفى العالم الإسلامى كله ، وجعل مصر مركز الثقل الإسلامى ، وفتح الشام والكثير من البلاد ، وصد الغارات عن مصر .

ولد جوهر الصقلى بجزيرة صقلية ، وهى إحدى جزر الدولة الرومانية فى ذلك الوقت ، وقد ظلت صقلية تحت حكم الرومان إلى أن فتحها أسد بن الفرات قاضى القيروان سنة ٨٢٧م وكان ذلك فى عهد المأمون وبعد فتحها أسلم أكثر أهلها وشيد المسلمون الكثير من المساجد بها . حتى أصبح عددها يزيد على ثلاثمائة مسجد ، قد أدى ذلك إلى أن انتشر الإسلام فى الجزيرة ، وأصبحت اللغة العربية هى اللغة الرسمية بها ، مما ساعد على ترجمة مؤلفات أفلاطون وأرسطو إلى اللغة العربية ، وأصبح التخاطب باللغة العربية أمراً عادياً ، وقد أثر هذا الجو الإسلامى واللغة العربية تأثيراً مباشراً فى نشأة جوهر الصقلى ، الذى عرف عنه حسن السياسة

والمهارة فى الشئون العسكرية . مما جعل الخليفة معد أبو تميم المعز لدين الله الفاطمى يختاره من ضمن رجاله .

أما عن ميلاد جوهر الصقلى قد اختلف عليه المؤرخون ، والأرجح أنه ولد بين سنة ٩٨م و ٣٠٠هـ ومات سنة ٣٨١هـ ويرجح المؤرخون أنه ولد مسلماً بسبب دخول الإسلام إلى الجزيرة سنة ٢١٢هـ ويرجحون أيضاً أن أباه قد دخل فى الإسلام الذى كان منتشراً فى البلاد .

وكان جوهر يكنى بأبى عبد الله ، وله ولد يدعى الحسين ، ويلقب الحسين بالقائد ابن القائد ، وذلك لموهبته وقدرته الحربية .



جوهر الصقلي
والمعز لدين الله الفاطمي

بعد دخول الإسلام إلى جزيرة صقلية انضم أهل الجزيرة إلى الفاطميين فى حروبهم ، وأخذ جوهر الصقلى يتدرج فى الوظائف والمناصب إلى أن أصبح كاتب المعز لدين الله سنة ٣٤١هـ ولقب بـ « جوهر الكاتب » وهذه الثقة من الخليفة المعز الذى عرف بثاقب نظره وفطنته تدل على ما امتاز به جوهر من المواهب والمزايا التى جعلته يبز غيره ويتبوأ تلك المكانة العليا . فقد كانت وظيفته إحدى الوظائف العليا التى يكمن فيها سر الخليفة وسر الدولة ، وقد أثبت جدارته وكفاءته مما جعله المعز يوليه الوزارة سنة ٣٤٧هـ ويرسل به لفتح باقى بلاد المغرب . ففتح الله على يديه ، واستولى على « تاهرت » ، وأخذت المدن تتهاوى تحت ضربات سيفه ، وسنابك خيلة حتى فتح كل بلاد المغرب الأقصى إلى أن وصل إلى ساحل المحيط الأطلسى .

واستطاع فتح فاس وقبض على صاحبها وصاحب سجلماسة ، وأرسلهما مقيدين فى قفصين إلى الخليفة ، وبذلك استطاع إتمام الفتوحات التى بدأها أبو عبد الله الشيعى سنة ٢٩١هـ وكانت مصر تمثل أملا بالنسبة للمعز . إذ يعتبرها قلب العالم الإسلامى . لذا اختار جوهراً لقيادة الحملة لفتح مصر ، وخرج المعز لوداعه .



فتح مصر

كان تقدير المعز أن من يستولى على مصر يستولى تلقائياً على الشام والحجاز الخاضعين لسلطان الأخشيديين المتولين أمر مصر ، والمسيطرين عليها وكان الفاطميون يطمعون فى اتخاذ مصر مركزاً لانطلاقهم للسيطرة على البلاد الإسلامية فى الشرق .

وقدظل الفاطميون يرسلون الحملات البرية والبحرية إلى مصر فى عهد المهدى الفاطمى وابنه القائم وقد جهزوا حملات ثلاث فشلت كلها بسبب قوة جيوش مصر ولم تسقط مصر فى أيديهم ، لذا انقطعت الحملات على مصر طوال عهد المنصور ثالث خلفاء الفاطميين.

ولكن المعز رابع الخلفاء الفاطميين بدأ المحاولات من جديد لفتح مصر فأرسل جيشاً لغزوها وصل إلى الواحات ، إلا أن كافور الإخشيدى استطاع صده ، ولكن حدثت خيانة الوزير يعقوب بن كلس . الذى اتصل بالمعز ، وبين له وجوه الضعف فى مصر ، وحثه على غزوها ، وضمها إلى أملاكه وكان يعقوب بن كلس يهودياً ولد فى بغداد ، وانتقل إلى مصر مع أبيه ، وكان كافور قد عينه فى ديوانه الخاص ، ثم أسلم يعقوب فزاد قدره عند كافور ولكن الوزير جعفر بن الفرات حبسه عند وفاة كافور ، ولكنه عاد وأفرج عنه بعد تدخل بعض رجال الدولة . لكن يعقوب خاف من الوزير جعفر ، ولم يعد يأمن على نفسه البقاء فى مصر . فهرب وسار إلى المعز فى بلاد المغرب وزين له غزو مصر .

فأخذ المعز يجهز لحملة قوية . يسر لها كل سبل النجاح ، ومن بينها إنشاء

الطرق ، وحفر عدداً من الآبار فى الطريق إلى مصر ، وجهز جيشاً كبيراً يزيد على مائة ألف مقاتل ، وأنفق على الحملة أموالا طائلة ، ويكفى القول بأن جملة ما أنفقه من العطايا على الجند بلغ أربعة وعشرون مليون دينار ثم استعرض المعز قواده ، ليختار منهم قائداً يمكن أن يحرز النصر ، فلم يجد أكفأ من جوهر الصقلى المجرب فى فتوحات المغرب ، وبسط سلطان الفاطميين عليها .

وقد خرج المعز لدين الله بنفسه لوداع الجيوش بقيادة جوهر ، وقال كلمة تظهر مدى ثقته فى قائده واستشرافه للنصر على يديه : « والله لو خرج جوهر وحده لفتح مصر ، وليدخلن مصر بالأردية من غير حرب ، ولينزلن فى خرابات ابن طولون ويبنى مدينة تقهر الدنيا » .

خرج جوهر من القيروان ، وهى احدى مدن بلاد المغرب فى سنة ٣٥٨هـ وقد زوده المعز بأموال طائلة للإنفاق على الجند بلغت ألف ومائة صندوق من الأموال ، وسار فى جيش يتجاوز المائة ألف مقاتل ، ومعه من الخيل ما يزيد بكثير عن عدد الجند .

وصل جوهر الصقلى إلى برقة ، فنزل بها ، وبعد فترة استجمام قصيرة استأنف السير إلى الإسكندرية . التى فتحت أبوابها بدون مقاومة . وهنا ظهرت حنكة جوهر الحكيم ، فقد أصدر أوامره للجند بعدم سلب أو نهب المدينة ، وقد أطاع الجند ، لأنه أغدق عليهم من أموال المعز ، وقدم لهم كثيراً من العطايا والأرزاق ، وعلى أثر سقوط الإسكندرية عقد الوزير جعفر بن الفرات اجتماعاً مع كبار الدولة للنظر فى استيلاء جوهر على الإسكندرية . فاجمعوا الرأى على طلب الصلح . فوافق جعفر ، وأناب أبا جعفر مسلم ، وهو من الأشراف العلويين ، وأرسل معه جماعة من أهل الرأى والتقى اعضاء الوفد مع جوهر فى مدينة تروجة قرب الإسكندرية ، وقبل جوهر شروط الصلح ، وأمن المصريين على أرواحهم وأموالهم .

وبذلك دخل جوهر مصر بغير قتال ، كما بشره المعز عند وداعه ، وكان أول ما فعله هو التعهد بنشر العدل وحماية مصر ضد هجمات البيزنطيين ، التى امتدت إلى بلاد الشام . التى كانت خاضعة للدولة الإخشيدية ، وكان من الطبيعى أن يمتد الخطر إلى مصر بعد وفاة كافور ، وضعف الدولة الإخشيدية .

كما تعهد جوهر بترك الحرية للمصريين بإقامة شعائرهم الدينية ، وعمل على إصلاح المساجد وإصلاح الجسور . وكانت تعهدات وتصريحات جوهر تصدر فى الاسكندرية ، ولم يكن وصل إلى العاصمة بعد . لكن الإخشيديين صمموا على قتال الفاطميين وعهدوا إلى « نحرير » بقيادة الجيوش . فنزل إلى الجيزة لكن جوهراً سبقه ، واستولى على المخاضة التى بمنية شلقان . حيث يسهل عبور قواته للنيل ، وحث جوهر قائده جعفر بن فلاح على عبور النيل مع المغاربة ، وقال له : لهذا اليوم أرادك المعز ، فتحمس جعفر وعبر النهر وتبعه المغاربة ، والتقى بالإخشيديين ودارت معركة كان الانتصار فيها للفاطميين ، وقتل عدد كبير من المصريين ، وبذلك تم فتح مصر بسهولة ، بفضل جوهر صاحب المهارة الحربية .

ونظراً لأن الإخشيديين تصدوا لجيش جوهر وقاتلوه توقع المصريون أن يعاملهم جوهر معامل سيئة . لكن جوهراً لم يكن قائداً فاتحاً وحسب ، وإنما كان مكلفاً بإرساء قواعد خلافة تمتد مع الزمن ، لذلك ألان الجانب لهم ليتألفهم ، ويحبب إليهم دعوة الفاطميين ، واتخذ خطوات إيجابية فى هذا الصدد ، منها أنه أذاع على الجند بياناً بأن يمتنعوا عن الإتيان بأى عمل من أعمال العنف والنهب ، وأن المصريين لهم الأمان على أرواحهم وأموالهم .

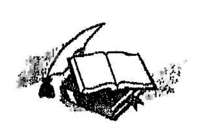
وكان لابد من تأمين جوهر نفسياً بأن المصريين لن يقوموا بأعمال مضادة تجاهه . لذا خرج أبو جعفر مسلم العلوى والوزير جعفر بن الفرات ومعه الأشراف والقضاة والتجار إلى لقاء جوهر عند الجيزة ، وقبلوا الأرض بين يديه - عدا أبو

جعفر مسلم ، والوزير جعفر بن الفرات ، وعادوا إلى الفسطاط بعد أن أدخلوا فى روع جوهر الطمأنينة .

وطارت أخبار الفتح إلى المعز . فابتهج وغمره السرور ، وجاءته التهانى من جميع الأمراء والأعيان والشعراء الذين أفرطوا فى المديح . فها هو الشاعر بن هانى يلقى قصيدة مطلعها :

تقول بنو العباس هل فتحت مصر   فقل لبنى العباس قد قضي الأمر
قد جاوز الإسكندرية جوهر   تصاحبه البشري ويقدمه النصر

ويدخول جوهر بجيشه مصر انتهى سلطان الإخشيديين عن مصر والعباسيين أيضاً . وبدأ عهد الدولة الفاطمية التى ترامت أطرافها ، وأصبح سلطانها يمتد من المحيط الأطلسى إلى البحر الأحمر .



فتح سوريا

لم يكن فتح مصر نهاية المطاف بالنسبة للفاطميين ، وإنما كان قاعدة ارتكاز للانطلاق شرقاً لانتزاع الشام والحجاز ، وإسقاط الخليفة العباسى إن أمكن ، والاستيلاء على بغداد عاصمة الدولة العباسية .

ولأن جوهر كان ذا حنكة عسكرية فذة ، ومواهب سياسية خارقة ، فقد أراد أن يضرب عصفورين بحجر واحد إبعاد جعفر بن فلاح منافسه الخطير فى مصر . خاصة وأن جعفر كان يرى فى نفسه أنه أفضل من جوهر ، وأن له الحق فى مصر ، لذا خطط لإبعاده عن مصر ، دون أن يتهم بنفيه أو التخلص منه ، وكان أن عقد له اللواء على جيش كبير، ووجهه إلى الشام وكانت بلاد الشام فى ذلك الوقت خاضعة للدولة الإخشيدية وفى المقابل أعد الحسن بن عبيد الله بن طغج الإخشيد وإلى الرملة ودمشق جيشاً لملاقاة جعفر وجيش الفاطميين ، لكن جعفر انتصر على جيش الحسن بن عبيد الله فى الرملة وأسره وأرسله إلى الفسطاط وحبس بها .

ثم انتقل جعفر إلى طبرية لمحاربه فاتك والى طبرية فحالفه النصر واستولى عليها وقتل الوالى فاتك ، وعلم أهل دمشق بسقوط الرملة وطبرية فلم يتصدوا لجيش الفاطميين بقيادة جعفر ، وإنما أوفدوا جماعة من كبار دمشق إلى جعفر الذى لم يحسن لقاءهم ، واتضح أن جعفراً يفتقد الحنكة السياسية لذلك لم يحسن السياسة وحسن المعاملة مع أهل دمشق ، وهو بهذا يختلف عن جوهر الصقلى فى معاملة أهل مصر . لذا لم يكن غريباً أن يشتد سخط أهل دمشق على جعفر وعلى جنده وأن يحملوا السلاح للقتال ضد جعفر وجنوده، ومع ذلك تمكن منهم جعفر واستطاع أن يدخل المدينة ويستولى عليها فى سنة ٣٥٩هـ .

ولما خـرج بعض أهل الحكمة فى دمشق لمقابلة جعفـر يطلبـون منه إصـلاح مـدينة دمشق حـدث خطأ آخـر . إذ إن جنوده قبـضوا عليـهم وسلبـوهم . فثـار أهل دمشق على تلك المعاملة السيئة ، ولكن قوة جعفر أخمدت هذه الثورة .

لكن لأنها اخمدت بالقوة ، وليس بالتفاوض كما فعل جوهر مع أهل مصر ظلت النفوس معبأة تتحين الفرصة للانتقام ، ودخل جعفر ورجاله مسجد دمشق لصلاة الجمعة ، وحذف اسم الخليفة العباسى من الخطبة وذكر مكانه اسم الخليفة الفاطمى ، لذا كان العنف متبادلاً بين جند جعفر وأهل دمشق ، فالجند نهبوا الناس بالمدينة فقتل أهل دمشق الكثيرين منهم ، ولما طلب شيوخ المدينة الأمان من جعفر وأعلنوا استياءهم مما حدث قال لهم جعفر . دخل رجال أمير المؤمنين للصلاة فقتلوهم ، وهددهم باستعمال العنف والقسوة مع أهل المدينة حتى جمعوا له الأموال ودفعوا ديه من قتل من رجال أمير المؤمنين ، وأجبر جعفر خطباء دمشق على حذف اسم الخليفة العباسى من خطبة الجمعة ، والدعاء للخليفة الفاطمى .



صعوبات تواجه
الفاطميين في سوريا

افتقد جعفر لكياسة السياسيين فى فتوحاته بالشام ، وغلب اندفاعه حكمته ، وقد دفع ثمن ذلك غاليا ، من عمره وجنده ، وتسبب فى ضياع وفقد ما فتحه من بلاد الشام . والسبب عنفه وقسوته واستهتار جنده بأرواح أهل دمشق الذين استنجدوا بالقرامطة وأفتكين للخلاص من المغاربة وجعفر .

وكانت دمشق قبل الاستيلاء عليها تدفع جزية لزعيم القرامطة الحسن بن أحمد قدرها ثلاثمائة ألف دينار ، لكن الفاطميين قطعوا الجزية بعد استيلائهم على المدينة فلم يرضخ زعيم القرامطة للأمر الواقع ، وأراد إكراه الفاطميين على دفع الجزية وحاول عقد حلف مع الخليفة العباسى فى بغداد . لكن الخليفة رفض ، فاتجه إلى التحالف مع بنى بويه فى العراق فرفضوا أيضاً .

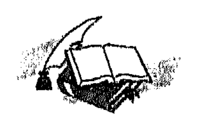
فلم يبق أمامه إلا الاتجاه للحمدانيين فى حلب ، وفى هذه المرة نجح ووافق أمير الرحبة من الحمدانيين على التحالف معه ، وانضم إليهما بعض القبائل العربية .

والتقى جيش الحسن القرمطى مع جيش جعفر فى الدكة ، وهى بلدة على مقربة من دمشق .

وهنا عاودت جعفر حماقاته فاستهان بالحسن القرمطى ، وكانت النتيجة هزيمة منكره كان هو ضمن ضحاياها ، فقد قتل ، وقتل معه كثير من الجند ، وبذلك انتهت حياة جعفر قائد الفاطميين الذى نشر سلطان الفاطميين فى سوريا .

ويرجع قتل جعفر إلى ما ارتكبه من الأخطاء وسوء التتدبير لدرجة أنه كان لا يكاتب جوهر بأنباء الفتوحات في بلاد الشام ، وإنما يكاتب المعز ، وقد لقنه المعز درساً في آداب السياسة ، ذلك أنه عندما وصلت كتب جعفر رفض أن يفضها ، وأمر بردها إليه وأمره بمكاتبة جوهر القائد المباشر له .

وهكذا استولى الحسن القرمطي الملقب بالأعصم على دمشق .



أبو منصور أفتكين

كان أبو المنصور أفتكين غلاماً لمعز الدولة أحمد بن بويه . اشتهر بالشجاعة والكفاية الحربية وقد سار إلى الرحبة ، فخرج إليه ظالم بن موهوب العقيلى عامل الخليفة المعز لدين الله الفاطمى على الرحبة ، وكان هدف أفتكين إقامة الخطبة للخليفة العباسى فى بغداد ، وقد أمده أبو المعالى بن حمدان بجيش كبير لمعاونته ضد الفاطميين ، وكان الطريق ممهداً أمام أفتكين بعد هزيمة جعفر وجنوده . لذلك دخل هو والقرامطة دمشق بدون حرب ، وفر ظالم ابن موهوب العقيلى أمام أفتكين فلم يتوقف أفتكين ، وإنما أخذ يلتهم مدن الشام والرملة ، وهاجم يافا ، واكتسح ساحل البحر الأبيض المتوسط حتى وصل إلى صيدا .

وفى صيدا تصدى له ظالم بن موهوب العقيلى وابن الشيخ والى صيدا من قبل المعز . فدار قتال رهيب قتل فيه من الفريقين حوالى أربعة آلاف رجل ، وانتهى الأمر بهزيمة ابن الشيخ ، وتراجع ظالم إلى مدينة صور . ثم سار إلى مدينة عكا ، وهكذا ازداد الخطر ، واستعصى الأمر على الفاطميين حتى تم القضاء على القرامطة فى عهد العزيز الفاطمى ، وعلى يد جوهر الصقلى .

جوهر يصد غارات
القرامطة عن مصر

أشتد خطر القرامطة على الفاطميين ، لأنهم كانوا أكثر حمقاً من جعفر ، ولم يحسنوا السياسة فى المدن التى فتحوها ، وإنما أساءوا معاملة أهلها ، وانقلبوا إلى الإغارة على المدن العباسية ودمروها ، وقطعوا طريق الحج ، وسلبوا الحجيج فاستشعر جوهر الخطر تجاههم ، وبدأ يحصن القاهرة بعد أن تطلع القرامطة لمهاجمتها .

ولجأ جوهر إلى بناء وتأسيس القاهرة ، وبنى حولها سوراً منيعاً لحمايتها من هجمات القرامطة ، وقد صح ما توقعه جوهر ، فقد سار الحسن بن أحمد زعيم القرامطة إلى الرملة ، وانضم إليه الكثير من الإخشيديين ، ثم اتجه إلى مصر ، ودخل مدينة القلزم ، وهى السويس الآن ، ثم دخل إلى الفرما « بورسعيد » واستمر فى زحفه حتى وصل إلى عين شمس ، وأصبح على مرمى حجر من القاهرة .

لكن ذلك لم يفت فى عضد جوهر ، الذى بدا رابط الجأش ، واستعد لقتال الحسن بن أحمد ، ووزع السلاح على المصريين والمغاربة ، وحفر خندقاً جعل عليه . بابين من الحديد ، وبدأت المعركة بين الطرفين ، وقتل عدد كبير من الفريقين وانتهت الحرب بهزيمة القرامطة ، وتقهقرهم إلى القلزم (السويس) وبذلك استطاع جوهر تجنيب البلاد الويلات والمحن .

واستولى المصريون على ما تركه القرامطة ولا شك أن اجتذاب جوهر للمصريين ، وتحببه إليهم هو الذى دفعهم إلى حمل السلاح والقتال بجانب

الفاطميين مما كان له عظيم الأثر فى رد القرامطة وقد استشعر المعز على البعد اشتداد خطر القرامطة ، وارسل جيشاً من القيروان بقيادة أبى محمد الحسين بن عمار حتى يزيد من قوة جوهر الصقلى .

وكانت خسارة القرامطة فادحة . أدت إلى رجوع أسطولهم من النيل بعد أن خسر عدداً كبيراً من الجند ، بين أسير وقتيل ، وعاد الحسن بن أحمد زعيم القرامطة إلى دمشق .

وعندما وصل المعز إلى مصر سنة ٣٦٢هـ رأى أن خطر القرامطة لا يزال يهدد مصر . فأرسل إلى الحسن بن أحمد القرمطى كتاباً بدأه بالإعذار ، وانتهى بالإنذار بعد أن وصف فيه الحسن بأنه غادر وخائن ، وأن عليه أن يرد جميع ما استحوذ عليه من الأسلاب فى حروبه مع جعفر .

وقد رد الحسن على الكتاب الذى أرسه الخليفة الفاطمى :

« لقد تسلمت كتابك المملوء بالألفاظ ، الخالى من المعانى ، وسيأتيك جوابى »
وكان الرد إغارة القرامطة مرة ثانية على عين شمس بعد أن عاونهم أنصار الإخشيديين .

وكان لابد من استخدام القوة الضارية للفاطميين ، وتدخل الخليفة المعز بنفسه ، وقد تدخل بالفعل عندما أرسل ابنه عبد الله إلى الوجه البحرى على رأس جيش كبير استطاع هزيمة القرامطة فى العديد من الوقائع .

ثم دخلت السياسة والخديعة فى الحرب ، وقد استطاع الخليفة الفاطمى أن يلجأ إلى سلاح المال ، ويرشو زعيم قبيلة بنى طى ، وكانت هذه القبيلة من أقوى عناصر جيش حسن القرمطى ، وقد اغراها المعز لدين الله الفاطمى بمائة ألف دينار ، ولما لم يكن هناك من المال ما يكفى لجأ المعز للخديعة مرة أخرى حينما أمر بضرب نقود زائفة من الرصاص ،عليها طبقة من الذهب .

ثم لجأ للخديعة مرة ثالثة حينما أمر بوضع المال فى أكياس على أن يوضع فى أعلاها قليل من الدنانير من الذهب الخالص ، والباقى من الدنانير المزيفة ، وعندما اشتدت الحرب بين الطرفين انصرفت بنو طى وزعيمها عن الحرب فأدى ذلك إلى تخلخل وضعف القوة التى بقيت مع الحسن ، وقتل من أتباعه أكثر من ألف وخمسمائة ، ثم بدأ العد التنازلى لانهيار قوة القرامطة . مما أدى إلى ارتدادهم عن مصر .

الدعوة الفاطمية

لم يكن هدف الفاطميين من دخولهم مصر هدفاً عسكرياً أو توسعاً إقليمياً بقدر ما كان هدفاً دينياً . قصدوا به نشر دعوتهم الشيعية ، ولأن مصر مفتاح الشرق بالنسبة لهم كمغارية . كان التركيز على نشر دعوتهم بها ، واتخاذها قصبة ملكهم لما اشتهرت به من نماء وثروة ، وكان ذلك سر محاولة غزو جيوش المهدى الفاطمى مصر لمرات متتالية من سنة ٣٠١هـ ، وسنة ٣٠٧ إلى سنة ٣٠٩هـ ، وسنة ٣٢١ ولم تنقطع المحاولات حتى عهد القائم بن المهدى سنة ٣٢٤هـ .

لأن امتلاك مصر يؤدى إلى نشر عقائد المذهب الفاطمى فى الشام والحجاز .

ولما تم فتح مصر سنة ٣٥٨هـ أخذ جوهر الصقلى فى الدعوة للخليفة الفاطمى ولأهل بيته من العلويين ، وكان أغلب المصريين يعتنق المذهب السنى ، وما إن انتهى جوهر من أساس مدينة القاهرة حتى أمر بإلغاء الدعاء فى خطبة الجمعة للعباسيين ، وإقامتها للمعز الفاطمى ، ولكى يلغى كل أثر للعباسيين أمر أن يضرب النقد باسم الخليفة الفاطمى ، ومنع لبس السواد شعار العباسيين وقرر لبس الملابس البيضاء .

وقد بدأت الدعوة الفاطمية فى جامع عمرو بن العاص وجامع ابن طولون والجامع الأزهر ، وهى المساجد الجامعة التى تقام فيها خطبة الجمعة فى ذلك الوقت وبالتدريج أصبحت المساجد مركزاً للثقافة الإسلامية الشيعية ومكاناً لإذاعة الأخبار الهامة ، وكان الهدف الأول لسياسة الفاطميين هو جذب الناس إلى مذهبهم ، وتعاليمه .

وقد بدأت الخطبة فى جامع عمرو بن العاص بعد استيلاء جوهر على الفسطاط ، وفيها ذكر اسم المعز بدلاً من اسم الخليفة العباسى ، ثم انشئ الأزهر وأصبح مركزاً لبث عقائد المذهب الفاطمى .

ولما وصل المعز إلى مصر قام بنفسه بنشر هذه الدعوة ووضع لها تخطيطاً يتضمن ديواناً هو أشبه بوزارة الأوقاف اليوم . وخصص لذلك الديوان مكاناً فى قصره الضخم ، ويضم داعى الدعاة ومساعديه ، وهم اثنى عشر نقيباً ، وقد زودهم المعز بكتب الدعوة ، وكان قصره يضم مجموعة كبيرة من تلك الكتب التى خصصت لنشر عقائد الفاطميين .

النظام الإدارى

اتبع الفاطميون سياسة الإغراء مع كبار موظفى الإدارة العليا فى مصر، وكان هذا الإغراء هو الوظيفة الإدارية ، وثمنها كان الدخول فى المذهب الفاطمى الشيعى. ولكى يسيل جوهر « الداهية » لعاب المصريين لذلك المذهب جعل كل الوظائف العليا بيد المغاربة . ومن أراد أن يبقى فى منصبه من المصريين كان عليه أن يعتنق المذهب الفاطمى ، ومن ثبت أنه لم يتشبع يعزل من منصبه .

ولتحقيق هذا الغرض لم يدع جوهر عملاً إلا جعل فيه مغربياً شريكاً لمن فيه ، وقد نجحت سياسته بحيث أصبحت أمور الدولة فى يد المغاربة الشيعيين فى سنة ٣٧٩هـ وتحقق ما أراد جوهر ، فقد انتشر المذهب الشيعى فى مصر بين الموظفين خوفاً من الاضطهاد ، أو رغبة فى الوظائف العليا .

وأهم الأعمال الإدارية التى تقلدها المغاربة هى الوزارة والقضاء وجباية الخراج وكان يتولى جباية الخراج فى مصر على بن يحيى بن العرمرم وقد أبقاه جوهر فى وظيفته . ولكنه عاد وأشرك معه رجاء بن صولاب المغربى .

ولما كان الخراج هو قوام وعصب الدولة ، لأنه يمثل سيولتها النقدية ، فإن المعز اهتم به اهتماماً كبيراً ، وأسند إشرافه ليعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن . وقد جبى جوهر الصقلى خراج مصر فى السنة الأولى فكان ٣٤٠٠٠٠٠ دينار .

لكن بعد وصول المعز مصر رأى اتباع التخطيط والدراسة فى جباية الخراج وعهد إلى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن بوضع نظام ضرائبى جديد . مع نظام جديد لتقدير وتحديد الضرائب على الأملاك . وعندما فتح جوهر مصر وجد أن أبا الفضل جعفر يتقلد منصب الوزارة منذ فترة طويلة . فقرر بقاءه فى منصبه .

لكن جوهراً لم يتركه بعيداً عن عينه ، وإنما وضعه تحت المراقبة الدائمة . عندما عين معه خادماً فى داره يلازمه فى كل شئ ويراقبه ، مما أدى إلى ضعف نفوذ الوزير إلى حد كبير وتحقق ما هدف إليه جوهر بعد ما أحصى الخادم على الوزير أنفاسه . فانتهز فرصة وصول المعز إلى مصر وطلب إعفاءه من منصبه ، فطلب منه المعز أن يبقى بجواره فى الأمور الهامة .

وكان طبيعياً أن يتقلد منصب الوزارة من بعده يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسين بعد ما عهد إليهما المعز بإدارة كافة شئون الدولة الحربية ، والمدنية ، وبذلك ظهرت قوى جديدة أثرت على بريق جوهر ، خاصة وأن ابن كلس قد أظهر ثقة كبيرة فى جعفر بن الفرات . الذى لم يفقد حظوته لدى الفاطميين حيث تولى الوزارة مرة أخرى فى عهد الخليفة العزيز بالله سنة كاملة وبهذا يكون ابن الفرات قد تقلد الوزارة فى عهد العباسيين والإخشيديين والفاطميين .

وإذا كان المعز قد ابقى على ابن الفرات مستشاراً . فإنه أبقى على قاضى القضاة أبو الطاهر امتداداً وإقرارا لقرار قائده جوهر حينما أبقى عليه ، حتى لا يجر عليه غضب المصريين . وسبب إبقاء المعز عليه أنه عندما وصل مصر خرج الناس لاستقباله ونزل الركب عن مطيهم ، وقبلوا الأرض بين يديه عدا أبا الطاهر . فإنه ظل راكباً حتى قرب منه المعز فترجل وسلم عليه ، ولم يقبل الأرض فسأل المعز عنه ، فأخبره أحد حجابه أنه قاضى مصر ، وهنا سأله المعز : « كم رأيت من خليفة ؟ فأجاب على الفور « ما رأيت خليفة غير مولانا المعز لدين الله صلوات الله عليه » فأعجب به الخليفة وأقره فى منصب قاضى القضاة لفطنته - لأن المعز يعلم أنه رأى خلفاء قبله من العباسيين . لكن كان هناك مأزق ينتظره ، لأن المعز لا يقبل بغير الإفتاء على المذهب الشيعى ، فكان ذلك شاقاً على أبى طاهر الذى اعتاد الإفتاء على المذهب السنى ، لذا كان طبيعياً أن يشرك معه المعز قاضياً مغربياً هو أبو سعيد

بن أبى ثوبان وكان طبيعياً أن يسحب البساط من تحت قدمى أبى طاهر بالتدريج مع زيادة نفوذ أبى سعيد . حيث تولى المظالم الخاصة بالمغاربة ، ثم أسند إليه بعد ذلك القضايا المشتركة بين المغاربة والمصريين ، ثم تولى النظر فى قضايا المصريين أنفسهم ، وأصبح يطلق عليه اسم قاضى مصر والإسكندرية .

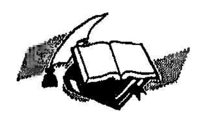
ومع تطور الأمور أصبح القضاء مغربياً بحتاً . حيث عين المعز قاضياً مغربياً آخر هو على بن أبى حنيفة النعمان . فكان يجلس ابن النعمان للقضاء فى جامع عمرو بن العاص ، وأبو الطاهر فى الجامع الأزهر .

إلى أن استقل على بن أبى حنيفة النعمان بالقضاء عامة على أثر شيخوخة أبى الطاهر .

ولما كانت سياسة الفاطميين صبغ مصر بمذهبهم تماماً فقد أمعنوا فى تعيين المغاربة فى الوظائف على طريقة ، أهل الثقة بدلاً من أهل الخبرة . لذا فإن جوهرا عند فتحه لمصر وجد المحتسب سنيا، فأقاله وعين رجلاً من المغاربة بدلاً منه ، ووسع اختصاصاته . بحيث أصبح المحتسب له الإشراف على الأسواق ، والمحافظة على الآداب ، ومراقبة الموازين والمكاييل ، ثم أصبح له نواب ينوبون عنه فى البلدان ، فكانوا يلاحظون قدور الطعام ، ويختمون اللحوم ، ويلزمون أصحاب السفن بألا تحمل أكثر من حمولتها وأيضاً يمنع المحتسب معلمى الكتاب من ضرب الأطفال ضرباً شديداً .

ويبدو أن بعض المغاربة لم يفهم سياسة جوهر التى ترمى إلى إقامة عرش فاطمى موطد الدعائم . وظنوا أنهم غزاة ، وأن مصر غنيمة ، فبدأوا يعتدون على المصريين ويقومون بأعمال النهب ويثيرون الشغب ، ولكن جوهراً انطلاقاً من مهمته الفاطمية أخذهم بالشدة والعنف ، وضرب على أيديهم بقوة ، بل وأمر بقتل جماعة منهم .

وبذلك قتل الفتنة فى مهدها ، وأخمد نيرانها . التى لو تركت لقضت على الدولة الفاطمية فى مهدها ـ على الأقل فى مصر .



منشآت جوهر الصقلى

تأسيس مدينة القاهرة :

كانت الإسكندرية عاصمة مصر قبل الفتح الإسلامى ، وقد أراد عمرو بن العاص عندما فتح مصر أن يبقى عليها عاصمة للبلاد كما هى ، ولكن عمر بن الخطاب أشار عليه باتخاذ مدينة غير الإسكندرية .

فاتخذ عمرو الفسطاط عاصمة جديدة ، وكانت تقع فى الفضاء الذى عسكر فيه عمرو بن العاص وجنده عند حصار حصن بابليون ، وسميت بالفسطاط . لأن عمرو بن العاص عندما أراد الخروج إلى الإسكندرية لقتال الروم أمر برفع فسطاطه «خيمته» فوجد أن يمامة قد باضت فيه ، فأمر بإبقائه كما هو حتى تفرخ اليمامة وعندما رجع المسلمون من الإسكندرية سألوا عمرو عن المكان الذى ينزلون فيه . فقال : « الفسطاط » .

وهنا قام عمرو بتأسيس مدينة الفسطاط . بعد ما قسم الأرض الخلاء قطعاً، وأعطى لكل قبيلة قطعة بنت فيها وأمر ببناء أول جامع فى مصر الذى سمى الجامع العتيق ، ثم أطلق عليه جامع عمرو .

وفى أيام الدولة العباسية رأى واليهم أن الفسطاط قد ضاقت بعسكره فأسس مدينة العسكر . فانتقلت إليها دار الإمارة والإدارة والشرطة . وأصبحت هى العاصمة ، ومع ازدهار العمارة فى العسكر ، وإقبال الناس على السكنى بها رأى أحمد بن طولون أن العسكر ضاقت بجنده ، فاختار المنطقة الواقعة شمال الفسطاط إلى جبل يشكر وسفح المقطم ، وشيد فيها دار الإمارة وجامعاً كبيراً ، وقد عرفت

هذه المنطقة باسم « القطائع » ثم بنى الأمراء والقواد والجند والناس فعمرت وقد قدرت مساحتها بميل فى ميل ، وأصبحت العاصمة ، وجاء من بعده ابنه خمارويه فوسع القطائع وجملها وزاد فى قصر أبيه .

وتعتبر القاهرة هى رابع عاصمة مصرية إسلامية تأسست سنة ٣٥٨هـ على أثر دخول جيوش المعز لدين الله ، وتحت قيادة جوهر الصقلى ، وقد بناها بناء على أوامر المعز الذى لم ينتقل إليها إلا بعد الفراغ من بنائها . وفى بداية بنائها دخل جوهر مدينة الفسطاط ، وعسكر فى الفضاء الواقع شمالها ، ثم وضع أساس المدينة ، وأساس قصر المعز لدين الله الفاطمى .

وقد أسس جوهر مدينة القاهرة لتكون مقراً للفاطميين ، ومركزا لنشر دعوتهم وعندما فرغ من بناء قصر الخليفة المعز لدين الله الفاطمى أقام حوله سوراً .

وسمى المدينة المنصورية نسبة إلى المنصور والد المعز حتى قدم المعز وسماها القاهرة .

ويقول المقريزى : (إن القائد جوهرا لما أراد بناءها أحضر المنجمين وعرفهم أنه يريد عمارة بلد ظاهر مصر ليقيم بها الجند ، وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الأساس . بحيث لا يخرج البلد عن نسلهم أبداً . فاختاروا طالعاً لوضع الأساس ، وطالعاً لحفر السور ، وجعلوا بدائر السور قوائم خشب ، بين كل قائمتين حبل فيه أجراس ، وقالوا للعمال وإذا تحركت الأجراس فارموا ما بأيديكم من الطين والحجارة . فوقفوا ينتظرون الوقت الصالح لذلك . فاتفق أن غراباً وقع على حبل من تلك الحبال التى فيها الأجراس . فتحركت كلها فظن العمال أن المنجمين قد حركوها . فألقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة وبنوا . فصاح المنجمون : القاهر فى الطالع .

فمضى ذلك وفاتهم ما قصدوه ، ويقال إن المريخ كان فى الطالع عند ابتداء وضع الأساس ، وهو قاهر الفلك ، فسموها « القاهرة » .

ولكن هناك رواية أخرى هى قول المعز نفسة حين أرسل جوهر الصقلى لفتح مصر وخرج فى وداعه فقال المعز « والله لو خرج جوهر وحده لفتح مصر ، وليدخلن إلى مصر بالأردية من غير حرب ، ولينزلن فى خرابات ابن طولون ويبني مدينة تقهر الدنيا » .

وتقع القاهرة شمال الفسطاط ، وتشمل القاهرة أحياء الجامع الأزهر والجمالية والحسينية وباب الشعرية والموسكى والغورية وباب الخلق ، وبعد بناء القاهرة أراد جوهر تحصينها ضد الغزاة . فأحاطها بسور كبير من الطوب اللبن ، وقد بنى هذا السور ثلاث مرات . الأولى فى عهد القائد جوهر سنة ٣٥٨هـ والثانية فى سنة ٤٨٠هـ فى خلافة المستنصر ، والثالثة فى عهد الملك الناصر صلاح الدين سنة ٥٦٦هـ .

وأطلق اسم القاهرة على الجزء الواقع بين الأسوار والجزء الواقع خارج القاهرة سمى بظاهر القاهرة .

وقد وضع جوهر أساس قصر مولاه المعز سنة ٣٥٨هـ ويقع القصر شرقى سور المدينة ، وقد أطلق عليه القصر الكبير الشرقى ، ويتكون من حوالى أربعة آلاف حجرة وأبواب كثيرة مثل باب العيد ، وباب الذهب ، وباب الزعفران .

وبعد ذلك بنى العزيز قصراً أصغر من القصر الشرقى سمى بالقصر الغربى ، لأنه يقع غربى القصر الكبير ، وكان بين القصر الشرقى والقصر الغربى فضاء واسع أطلق عله « بين القصرين » .

ويفصل على مبارك فى خططه مدينة القاهرة التى بناها جوهر، ويصف شكلها فيقول : إنها كانت مربعة طول أضلاعها حوالى ألف ومائتا متر ومساحة الأرض ثلاثمائة وأربعون فداناً . منها سبعون فداناً هى مساحة القصر الكبير ،

وخمسة وثلاثون فداناً للبستان الكافورى ، وخمسة وثلاثون فداناً للميادين ، ومائتا فدان توزعت على الفرق العسكرية .

وقد جعل جوهر لمدينة القاهرة أربعة أبواب منها : باب زويلة ، وباب النصر ، وباب الفتوح ، يتكون باب زويلة من بابين متجاورين ، وسمى باب زويلة نسبة إلى قبيلة زويلة إحدى قبائل البربر التى جاءت مع جوهر من المغرب .



الجامع الأزهر

تم فتح مصر على يد جوهر فى ٧ شعبان سنة ٣٥٨هـ ، وفى يوم الجمعة توجه إلى جامع عمرو لصلاة الجمعة .

وجامع عمرو هو أول جامع أنشئ بمصر . أنشأه عمرو بن العاص سنة ٢١هـ بعد فراغه من فتح الإسكندرية . ويعرف بتاج الجوامع ، والجامع العتيق ، وكانت مساحته وقت إنشائه ٥٠ ذراعاً × ٣٠ يحيط به الطريق من كل جهة ، وتسوده البساطة .

وقد أنشئت مساجد متناثرة حسب إقامة قبائل الفتح ، كلها كانت مساجد صغيرة لم تؤد فيها صلاة الجمعة ، لأنها كانت تؤدى فى المسجد الجامع . وكان أحد هذه المساجد الجوامع جامع أحمد بن طولون . الذى بنى القطائع لتكون مقر الحكم وقصبة مصر . وقد بدأ ابن طولون ببناء قصره الفخم ، والميدان ، وبعد فراغه منهما شرع فى بناء الجامع سنة ٢٦٣هـ ، واستمر العمل حتى شهر رمضان سنة ٢٦٥هـ وهو يعتبر من أكبر المساجد حيث تبلغ مساحته مع الزيادات ستة أفدنة ونصفا ، وقد وضع تصميمه على مثال المساجد الجامعة ، صحن كبير مكشوف تحيط به أروقه ذات عقود ، وهو على شكل مربع تقريباً يحيط به من جوانبه القبلية والبحرية والغربية أروقة غير مسقوفة تعرف بالزيادات ، وهى من المسجد ، وقد بنى الجامع على غرار مساجد بغداد ، والتى يشبهها جامع سوسه ، وتتميز مئذنته بأن سلمها من الخارج مثل جامع سرمن رأى ، وقد صمم الجامع بحيث يستقبل المصلين فى جميع الجهات . لذا فتح فيه ٢١ باباً يقابلها مثلها فى الزيادات . يدخل منها المصلون من المساكن والأسواق المتناثرة حول الجامع .

وقد أراد جوهر ببناء الأزهر أن يشبه دخول الفاطميين لمصر بالفتح الإسلامى وإذا كان جامع عمرو بن العاص أول جامع أسس بالفسطاط فالجامع الأزهر أول جامع أسس بالقاهرة . وقد أصدر جوهر أوامره ببناء الجامع الأزهر أثناء بنائه للقصر ليصلى فيه الخليفة . لأن الخليفة لن يحضر إلا بعد بناء القصر ، فلا بد أن يكون له مسجد ، وليكون مسجداً جامعاً للقاهرة أسوة بجامع عمرو بن العاص بالفسطاط والجامع الطولونى بالقطائع إلى جانب الهدف الأساسى من بنائه وهو جعله معهداً لتعليم الفقه الشيعى ونشره ، وقد بدأ فى بنائه فى جمادى الأولى سنة ٣٥٩هـ .

وانتهى العمل فيه ، وأقيمت به أول جمعة فى ٧ رمضان سنة ٣٦١هـ وكان الأزهر وقت إنشائه مكوناً من ثلاث إيوانات .. حول الصحن ، الشرقى منها مكون من خمسة أروقة ، وبكل من الجانبين القبلى والبحرى ثلاثة أروقة .

وقد فتحت بأعلى الجدران شبابيك جصية مفرغة بأشكال هندسية تتخللها أشكال متماثلة مزخرفة . أحيطت بإفريز مكتوب فيه بالخط الكوفى المزخرف آيات من القرآن .

وقد حرص الفاطميون على تسمية هذا المسجد الجامع بالأزهر حرصاً منهم على تذكير كل الأجيال أنهم نسل فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ حتى يضمنوا ولاء المسلمين الذين يحبون آل بيت رسول الله ﷺ .

وفى البداية صنع جوهر منبراً عادياً ثم صنع له منبراً آخر من الخشب المخروط الجميل الصنع حل محل المنبر الأول الذى نقل إلى جامع الحاكم .

وكان المعز يذهب إلى الجامع الأزهر فى يوم الجمعة فى موكب حافل للصلاة . وقد جلس دعاة المذهب الشيعى للتدريس فى الأزهر فى البداية ، ثم تحول بعد ذلك إلى جامعة تدرس فيها العلوم فى عهد العزيز الخليفة الفاطمى .

ومع مرور السنين ، أصبح الأزهر جامعة ضخمة فخمة تدرس الدين والفقه على المذاهب الأربعة ، إلى جانب علوم اللغة والتوحيد والتفسير والحديث والمنطق والفلسفة وغيرها ، وأصبح قبله طلاب العلم ليس فى مصر فقط . بل فى العالم الإسلامى كله . بعد أن ذاعت شهرته وتخرج فيه العلماء الأجلاء ، وأصبح مقصد الطلاب من جميع البلاد الإسلامية لتلقى العلم فيه .

قدوم المعز إلى مصر

كان جوهر من أخلص القواد . إذ إنه بعد أن فتح مصر لم يشأ أن يجشم المعز عناء البناء والإنشاء وتأمين مصر ، وإنما انتظر حتى بنى له مدينة خاصة ، وقصراً خاصاً ، وجامعاً خاصاً . ومهد لقدومه فى عز وإجلال لتعلو مكانته فى نفوس المصريين . وقد استغرق ذلك ٤ سنوات أدار فيها جوهر شئون مصر بكفاءة نادرة . بدأت من قدومه سنة ٣٥٨هـ حتى قدوم المعز سنة ٣٦٢هـ ، بعد ما كتب جوهر إليه يطلب منه الحضور إلى مصر ، وبعد أن خضعت مصر والشام والحجاز للفاطميين .

والصورة التى حضر بها المعز تكشف الهدف الحقيقى من فتح مصر ، وهو اتخاذها مركزاً أساسياً لنشر الدعوة الفاطمية . فعندما وصل الإسكندرية يوم السبت ٢٣ شعبان سنة ٣٦٢هـ لم يكن وحده ، أو اقتصر على أسرته فقط ، وإنما أحضر معه رجال دولته وأولاده وأخوته وأعمامه ومعه جثث آبائه المهدى والقائم والمنصور .

وقد صنع له جوهر استقبالاً لم يحدث لحاكم مسلم قبله . إذ كان فى استقباله أعيان البلاد ، وعلى رأسهم قاضى القضاة ، وقد جلس المعز ، وخطب فيهم خطبة طويلة ذكر فيها « أنه لم يرد دخول مصر لزيادة فى ملكه ولا لمال ، وإنما أراد إقامة الحق والحج والجهاد ، وأن يختم عمره بالأعمال الصالحة ، وأن يعمل ما أمر به جده ﷺ ثم وعظهم وأطال فى الوعظ حتى بكى بعض الحاضرين .

ثم بدأ المعز سيره من الإسكندرية إلى القاهرة فى أواخر شعبان سنة ٣٦٢هـ فوصل إلى الجيزة فى ٢ رمضان سنة ٣٦٢هـ فخرج إليه القائد جوهر ، وترجل عند

لقائه ، وقبل الأرض بين يديه ، ثم استقبل الوزير أبا الفضل جعفر بن الفرات وبقى ثلاثة أيام بالجيزة . عبر جنوده بأمتعتهم النيل أثناءها من شاطىء الجيزة إلى ساحل مصر . وفى يوم الثلاثاء الخامس من رمضان سنة ٣٦٢ عبر المعز النيل ، ودخل القاهرة دون أن يمر بالفسطاط ، ونزل بالقصر الذى بناه له جوهر ، وخر ساجداً لله تعالى ، ثم صلى ركعتين وصلى معه كل الحضور ، وأصبحت مصر منذ ذلك الحين دار خلافة بعد أن كانت دار إمارة ، وأصبحت القاهرة مركز هذه الإمبراطورية ، وأقام مع المعز فى القصر أولاده وحاشيته ، وكان جوهر يقيم فى ذلك القصر . فلما علم بوصول المعز إلى الجيزة تركه ، ولم يحمل معه شيئا من الأثاث ، ونزل فى داره بالقاهرة .

وجلس المعز فى قصره ، وأذن بدخول الناس عليه ، فدخل الأشراف ثم الأولياء وجوهر يقدم الناس طبقة بعد طبقة ، ثم قدم جوهر هديته إلى الخليفة المعز لدين الله الفاطمى ، وهى عبارة عن مائة وخمسين فرساً مسرجة ملجمة ، بعض هذه السروج واللجم موشى بالذهب بعضها مرصع بالجواهر ، وتسع نوق محملة بالحرير ، وثلاث وثلاثون بغلةللنقل ، وتسعون نجيباً « الأصيل من الجياد » وأربعة صناديق بداخلها أوانى الذهب والفضة ، ومائة سيف محلى بالذهب والفضة ، وغير ذلك من هدايا جوهر لمولاه المعز .

وقد حرص المعز على زرع حبه فى قلوب المصريين ، بإظهار التسامح والعطف ، فكان أول قرار له بعد الانتهاء من تقديم الهدايا والتحف هو الأمر بإطلاق جميع من اعتقل من الإخشيديين والكافوريين ، ثم بالغ فى إكرام جوهر . ولإضفاء الهيبة على رجاله ، وتشجيع النابهين على التفانى فى خدمته . فلم يكد ينتهى من صلاة عيد الفطر حتى خلع على جوهر خلعة مذهبة وعمامه ، وقلده سيفاً وعشرين فرساً مسرجة ملجمة ، ومنحه خمسين ألف دينار ومائتى ألف درهم .

لكنه رغم الإكرام ، عمل على تقليص دوره ، ربما خوفاً عليه من الغرور. فبعد أن ظلت الأمور فى مصر فى يد جوهر استأثر المعز بكل الأمور منذ قدومه ٣٦٢هـ وسحب كثيراً من اختصاصات جوهر ، وقلدها ليعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن .

وبهذه الإجراءات ألقى المعز ظلالاً كثيفة على جوهر ، وجعله يتوارى عن مسرح الأحداث السياسية فى مصر التى فتحها .

لكن أراد الله أن يخرج جوهراً من الظل ، ويصبح نجما وقائداً من جديد ، وذلك أن المعز توفى فى ربيع الآخر سنة ٣٦٥هـ وتولى الخلافة ابنه العزيز ، وفى ذلك الوقت كان خطر أفتكين والقرامطة قد عظم وتفاقم على الخليفة المعز .

ولم يشأ العزيز أن يستعمل السيف قبل بذل اللين والحكمة ، فكتب إلى أفتكين رسالة يستميله فيها ، ويمنيه بالمكافأة إذا جلا عن دمشق ، ولكن أفتكين رد على العزيز معتزاً بنفسه وبما حققه قائلاً :

« هذا بلد أخذته بالسيف ، وما أدين فيه لأحد بطاعة ولا أقبل أمراً » .

وكان العزيز سياسياً بارعاً ، فلم يتخذ قراراً قبل المشورة ، وكان ممن استشادهم الوزير يعقوب بن كلس الذى أشار عليه أن يجهز جيشا ، ويولى قيادته لجوهر ليزحف به على دمشق ويهاجم أفتكين .

وهكذا يظهر جوهر على الساحة مرة أخرى وكان جوهر عند حسن ظن العزيز كما كان عند حسن ظن أبيه سابقاً .

وسار جوهر سنة ٣٦٦هـ على رأس جيش كبيرلقتال أفتكين والقرامطة ، وفى البداية استعمل أسلوب العزيز . فكتب إلى أفتكين بلين ورفق وقدم له الأمان من العزيز والهدايا ثم طلب منه الكف عن القتال وترك الفتنة . فكتب إليه أفتكين يشكر له حسن سعيه لدى العزيز . لكنه اعتذر بعدم قبول أهل دمشق ما جاء فى كتابه .

وكان لا بد من الاحتكام للسيف . فدارت بين جوهر وأفتكين حروب طويلة أبدى فيها أفتكين شجاعة نادرة ، وطلب معاونة الحسن القرمطى على قتال المغاربة. فاستجاب الحسن القرمطى ، وتفاقم الخطب على جوهر وجنوده ، وهنا ظهرت حنكته الحربية حين طلب الصلح مع أفتكين على أن يجلو عن دمشق ، فأجابه أفتكين إلى طلبه ، فرحل جوهر عن دمشق ، لكن الحسن القرمطى بعث سرية لقتاله. فاشتبكت معه فى معركة طاحنة قتل فيها كثير من العرب ، ثم خطط القرمطى للقضاء النهائى على جوهر وجنوده ، فعبأ قواته وقوات أفتكين لقتال جوهر وانضم إليهما من أهل الشام أكثر من خمسين ألفاً أدركوا جوهراً عند نهر الطواحين ، وهو المورد الوحيد للماء . وأدرك جوهر حجم الكارثة المتوقعة ، فكتب إلى العزيز يخبره أنه لا يستطيع البقاء ، ولا قبل له بمقاومة جيوش أفتكين والقرامطة ، وطلب إليه أن يأذن له بالتوجه إلى عسقلان . فأذن له وتحالفت كل الظروف ضد جوهر بعد ما ندرت المؤن ، وعزت الأقوات فارتفعت الأسعار .

لكن قوات أفتكين والقرمطى لم تأخذ الفرصة السانحة ، وزحفت إلى عسقلان وهنا تجلت عبقرية ودهاء جوهر ، الذين أنجز بهما ما عجز عن تنفيذه بالسيف ، وأنقذ جيوشه من الفناء ، فقد أرسل إلى أفتكين يطلب منه هدنة للمفاوضات وإحلال الوئام وحين اجتمع بأفتكين قال له : « علمت ما يجمعنى وإياك فى حرمة الإسلام وحرمة الدين . وهذه فتنة قد طالت وأريقت فيها الدماء ، ونحن المأخوذون بها عند الله ، وقد دعوتك إلى الصلح والموادعة والدخول فى السلم والطاعة ، وبذلت لك كل اقتراح وإرادة وإحسان وولاية . فأبيت إلا القبول ممن يشعل نار الفتنة ويستر عنك وجه النصيحة . فراقب الله تعالى وراجع نفسك ، وغلب رأيك على هوى غيرك » .

وكانت هذه الكلمات بمثابة الماء الذى ألقى على النار التى تغلى فى صدر أفتكين الذى أجابه : « أنا والله واثق بك وبصحة الرأى والمشورة منك ، لكننى غير

متمكن مما تدعونى إليه ، ولا يرضى القرمطى بدخوله فيه معى ، وهنا ظهرت مهارة جوهر فى استمالة أفتكين . إذ خاطب فيه النخوة ، واستثار فيه الرحمة وجعله نفسياً يشعر أنه فى موقف المتعطف والممتن حين قال له : إذا كان الرأى والأمر فإنى أصدقك على أمرى تعويلاً على الأمانة ، ولما أجده من الفتوة عندك . فقد ضاق الأمر ، وامتنع الصبر . أن تمن على بنفسى وبهؤلاء المسلمين الذين معى وعندى ، وتأذن لى لأمضى وأعود إلى صاحبى شاكراً ، وتكون قد جمعت بين حقن الدماء واصطناع المعروف ، وعقدت على وعلى صاحبى منه تحسن الأحدوثة فيها ، وربما أملت المقابلة لك عنها » .

فقال أفتكين : « أفعل وأمُن على أن أعلق سيفى ورمح الحسن بن أحمد القرمطى على باب عسقلان ، وتخرج أنت وأصحابك من تحتهما . فرضى جوهر بذلك ، وتعاهدا وأخذ جوهر ختم أفتكين رهينة على الوفاء .

ولكن عندما وصلت الأخبار إلى الحسن القرمطى أحس بالخديعة ، واغتاظ كيف فات دهاء جوهر على أفتكين ؟ فأسرع إليه وقال له : « لقد أخطأت فيما فعلته وبذلته ، وجوهر هذا ذو رأى وحزم ودهاء ومكر ، وقد استقلك بما عقده معك ، وسيرجع إلى صاحبه ، ويحمله على قصدنا ، ثم لا يكون لنا به طاقة فيأخذنا ، ومن الصواب أن ترجع عن ذلك حتى يهلك هو وأصحابه جوعاً ، ثم نأخذهم بالسيف » ولكن أفتكين رد عليه « قد عاهدته وحلفت له ، وما استجيز الغدر به ، ثم علق السيف والرمح فخرج جوهر وأصحابه من تحتهما » .

وعندما وصل جوهر إلى القاهرة ، ودخل على الخليفة العزيز وشرح له استفحال أمر أفتكين ومن معه . طلب العزيز المشورة . فقال جوهر : « إن كنت تريدهم ، فأخرج بنفسك إليهم وإلا فإنهم واردون على أثرى » .

فأحس العزيز بصدق النصيحة ، ورأى أن الأرض تهتز تحت أقدام الفاطميين فجهز جيشاً عظيماً قاده بنفسه ، وأخذ معه جوهراً ، فتجهز له أفتكين والقرمطى فالتقى الجيشان فى الرملة ، وحمى وطيس القتال ، وحمل أفتكين على ميسرة الفاطميين فقتل الكثير منهم ، وحمل العزيز على ميمنة جيشى القرمطى وأفتكين ، وسرعان ما دارت الدائرة عليهما وهزما فى يوم الخميس ٢٣ من محرم سنة ٣٦٧ فاعمل العزيز السيف فى جيشهما وقتل نحو عشرين ألف رجل .

وبذلك قضى العزيز على هذه الفتنة ، وقبض على أفتكين وسار به إلى القاهرة ومعه كثير من الأسرى ، وظهرت حنكة العزيز حينما استفاد بالأسرى ، وبدلاً من حبسهم وإطعامهم ، أحسن إليهم ، وكلفهم بأعمال تنتج للدولة ، وتظهر أيضاً صفة من أهم صفات العزيز بالله وهى العفو . حيث عفا عن أفتكين وأسكنه داراً فسيحة وأغدق عليه ، وظل على ذلك حتى مات سنة ٣٧٢هـ . ولعله بذلك يرد جميله الذى طوق به عنق جوهر وجيشه حينما سمح لهم بالخروج من عسقلان ، ولم يستجب للقرمطى ويقتلهم .

وفاة جوهر الصقلى

نفذ جوهر السياسة الفاطمية التى كانت ترمى إلى جعل مصر جسراً يعبر عليه الفاطميون إلى المشرق . لتأسيس خلافة فاطمية ، وكان بلاء جوهر الحسن فى القضاء على القرامطة إنجازاً لا يقل عن فتح مصر . إذ لو لم يخدع جوهر أفتكين ويستنقذ منه جيشه لقضى القرامطة على الخلافة الفاطمية .

ومآثر جوهر على الفاطميين تماثل مآثر أبو مسلم الخراسانى على العباسيين وانجازات جوهر للفاطميين كثيرة . إلا أن العباسيين غدروا بمسلم ، والفاطميين أكرموا جوهراً فهو منشيء القاهرة التى أصبحت منار الحضارة الإسلامية ، وأصبحت مركزاً للعلوم والفنون والآداب .

وقد كان جوهر مثالاً للحاكم العادل . إذ كان يقضى بين الناس بالعدل ، يرد الحقوق إلى أصحابها ، ويضرب على أيدى العابثين ، وقد ضرب على أيدى الجند المغاربة ، ومنعهم من التعدى على الناس ، ويمكن أن نقول بكل اطمئنان : إن جوهراً يعتبر مؤسس الحضارة الفاطمية فى مصر والشرق .

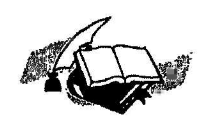
وإذا كان جوهر توارى فى ظل المعز ، فإنه عاد للظهور فى عهد العزيز ، وكان أحد أسباب القضاء على خطر القرامطة وأفتكين .

ورغم إنجازات جوهر فلم يداخله الغرور يوماً ، بل كان واقعياً لا يكابر يعترف بواقع الأحداث ، فقد ذكر المقريزى « أن منجوتكين التركى خرج من قصر العزيز سنة ٣٨١ وهو ممتط جواده وفى حاشيته القائد جوهر وابن عمار وغيرهما من رجالات الدولة مشاة ، وكانت يد جوهر فى يد ابن عمار . فتنهد ابن عمار وزفر

زفرة كاد ينشق لها صدره ، وقال « لا حول ولا قوة إلا بالله » فنزع جوهر يده منه وقال : « قد كنت عندى يا أبا عمار أثبت من هذا ... لكل زمان دولة ورجال أنريد نحن أن نأخذ دولتنا ودولة غيرنا؟ لقد ترجل لى مولانا المعز ، لما سرت إلى مصر، وأولاده وإخوته وولى عهده وسائر أهل دولته ، فتعجب الناس من ذلك . وها أنا اليوم أمشى راجلاً بين يدى منجوتكين . أعزونا ، وأعزوا بنا غيرنا ، وبعد هذا أقول « اللهم قرب أجلى وموتى فقد أَنَفْتُ على الثمانين » .

وقد استجاب الله دعاء جوهر ، فتوفى جوهر فى يوم الإثنين ٢٣ ذى القعدة سنة ٣٨١هـ وقد أعز الخليفة العزيز قدره ، وتصرف بما يليق بمن أقام ملكهم . فبعث إليه بالحنوط ، هو وابنه المنصور . فكفن جوهر فى سبعين ثوباً ما بين مثقل وموشى بالذهب ، ثم صلى عليه العزيز بالله ، ودفن بالقرافة الكبرى ، وخلع العزيز على ابنه الحسين ابن جوهر ، وجعله فى رتبة أبيه ، ولقب بالقائد بن القائد

وهكذا مات جوهر الصقلى الكاتب والقائد والسياسى الماهر .



دولة الفاطميين

خلفاء الفاطميين :

توفى المعز لدين الله سنة ٣٦٥هـ فخلفه ابنه العزيز ، وتولى العزيز بالله (٣٦٥ ـ ٣٨٦هـ) الحكم بعد أبيه المعز لدين الله ، وكانت سنه عشرين عاماً ، وقد اتسع ملك الفاطميين فى عهده ، وزادت مملكته على مملكة أبيه ، وفتحت له حمص وحماة وشيزر وحلب ، وكان العزيز كريماً شجاعاً ، وفيه رفق بالرعية ، كان القائم على تدبير مملكته جوهر الصقلى ، وبدأ العزيز ببناء الجامع الذى أتمه من بعده ابنه الحاكم وينسب إلى العزيز أنه تشدد فى نشر المذهب الشيعى ، بنى القصر الغربى ، وبنى قصر البحر ، وكان أول من حول الأزهر إلى جامعة ، وجعلها تحت إشراف وزيره يعقوب بن كلس وعرف عن العزيز تسامحه مع أهل الذمة .

وتوفى العزيز وعمره اثنتان وأربعون سنة وثمانية أشهر ونصف بمدينة بلبيس ، وهو فى الطريق إلى الشام لغزو الروم ، وكانت خلافته إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ، تولى ابنه الحاكم الخلافة وعمره إحدى عشرة سنة وعين عليه وصى تركى يسمى برجوان وكانت السلطة بينه وبين ست الملك أخت الحاكم بأمر الله .

وقد أصدر قراراً بمنع المسكرات ، كما منع القمار ، وأصدر أوامر مشددة على النظافة ، وكذلك اهتم بالتجارة وحرص على سلامة المكاييل والموازين ، واهتم كذلك بالنيل والزراعة . كما اهتم بالقضاء بأن ضاعف الرواتب للقضاة ، وذلك بشرط ألا يأخذوا من أموال الرعية شيئاً .

وأنشأ الحاكم بأمر الله دار الحكمة ، وجمع فيها خيرة العلماء من جميع العلوم والفنون . وحظر الحاكم على النساء كشف جوههن وراء الجنائز والبكاء والعويل .

وأصدر قراراً أن تقر النساء فى بيوتهن ، وإلا يخرجن منها لغير ضرورة ، ومنع صانعى الأحذية من صنع أحذية لهن ، ومنع الحاكم بأمر الله أن تخرج امرأة بعد العشاء .

وقرر أن يعيش حياة الزاهد . فاقتصر فى مطعمه ومشربه على ما تدعو إليه الحاجة لتماسك الجسم دون زيادة ، وأغلق مطبخ دار الخلافة .

وترك ركوب الخيل ، وصار يركب الحمير ، ومنع زراعة العنب ، واتهم من يزرع العنب أنهم يزرعون الكروم لعمل الخمور. وقد أصدر أوامر غريبة فقد حرم الملوخية وحرم الجرجير ، وجعل العمل بالليل والنوم بالنهار وكان مولعاً بسفك الدماء فقد قتل الوصى برجوان وقتل الحسين بن جوهر قائد قواته ، والفضل بن صالح ، وكان من أعظم القواد وقتل القاضى حسين بن النعمان ، وقتل الحاكم بأمر الله ، وكان عمره ستاً وثلاثين سنة وتسعة أشهر ، وولايته خمساً وعشرين سنة وعشرين يوماً ، وكانت وراء قتله أخته ست الملك .

وجاء من بعده ابنه الظاهر ، وكان فى السادسة عشرة من العمر . فلم يكن بالرجل الذى يقدر على أمور الخلافة ، وقامت ست الملك بإدارة شئون الخلافة لمدة أربع سنوات ، ولما ماتت أمسك الظاهر بمساعدة الوزراء أمور الدولة ، وتسامح مع أهل الذمة واعتنى بالزراعة ، ولكن مجاعة كبيرة حصلت فى البلاد ، وفى هذا العهد بدأت قوة الخلفاء الفاطميين فى الاضمحلال ، وتحولت جميع السلطة إلى الوزراء .

وتولى بعد الظاهر ابنه المستنصر ، وقد حكم مصر والبلاد وعمره سبعة سنوات وظل المستنصر ستين سنة وكانت فترة حكمه بداية للتدهور السريع فى الدولة الفاطمية ، واستبداد الوزراء ، ثم حدثت اضطرابات الجيش ، ثم القحط الهائل الذى استمر سبع سنوات .

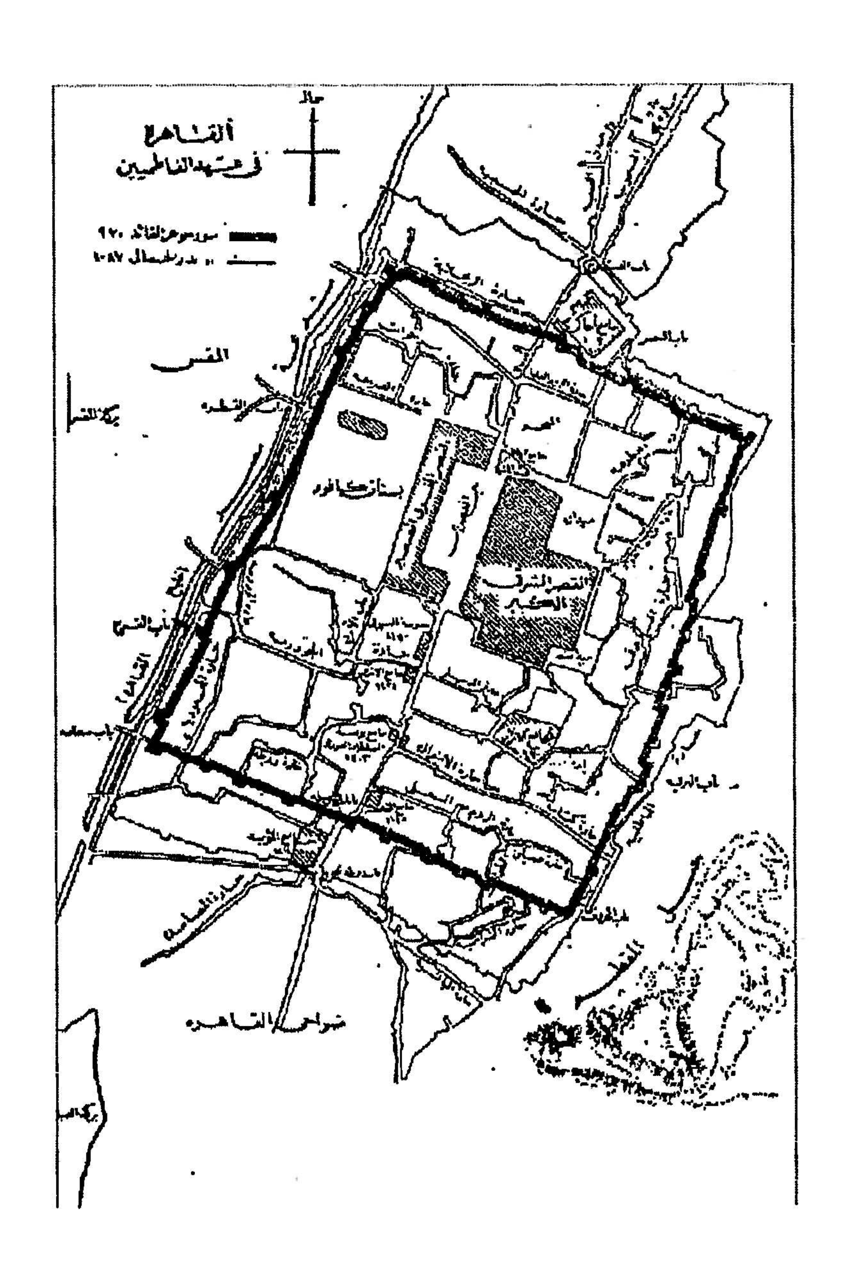
وشارك الخليفة شعبه فى الجوع فالقصر خلا من أثاثه . اللهم إلا من حصيرة قديمة . أما طعامه فكان رغيفين كل يوم ووسط الاضطراب استدعى المستنصر بدر الجمالى حاكم عكا الأرمنى وقد خدع الأتراك ، ففتك بالقواد الأتراك ثم انصرف إلى اصلاح البلاد ، وساد الأمن وازداد الخراج وعم الخير ، وبنى حول المدينة سوراً جديداً.

وتولى الخلافة من بعد المستنصر المستعلى والآمر والحافظ والظافر والفائز ، وكلهم كانوا فى شدة الضعف تولوا الخلافة وهم أطفال ماعدا الحافظ ، وكان الوزراء فى عهدهم هم الحكام الحقيقيين للبلاد .

وكان آخر الخلفاء الفاطميين العاضد ، وكان عهده عهد انحلال انتهى بسقوط هذه الدولة .

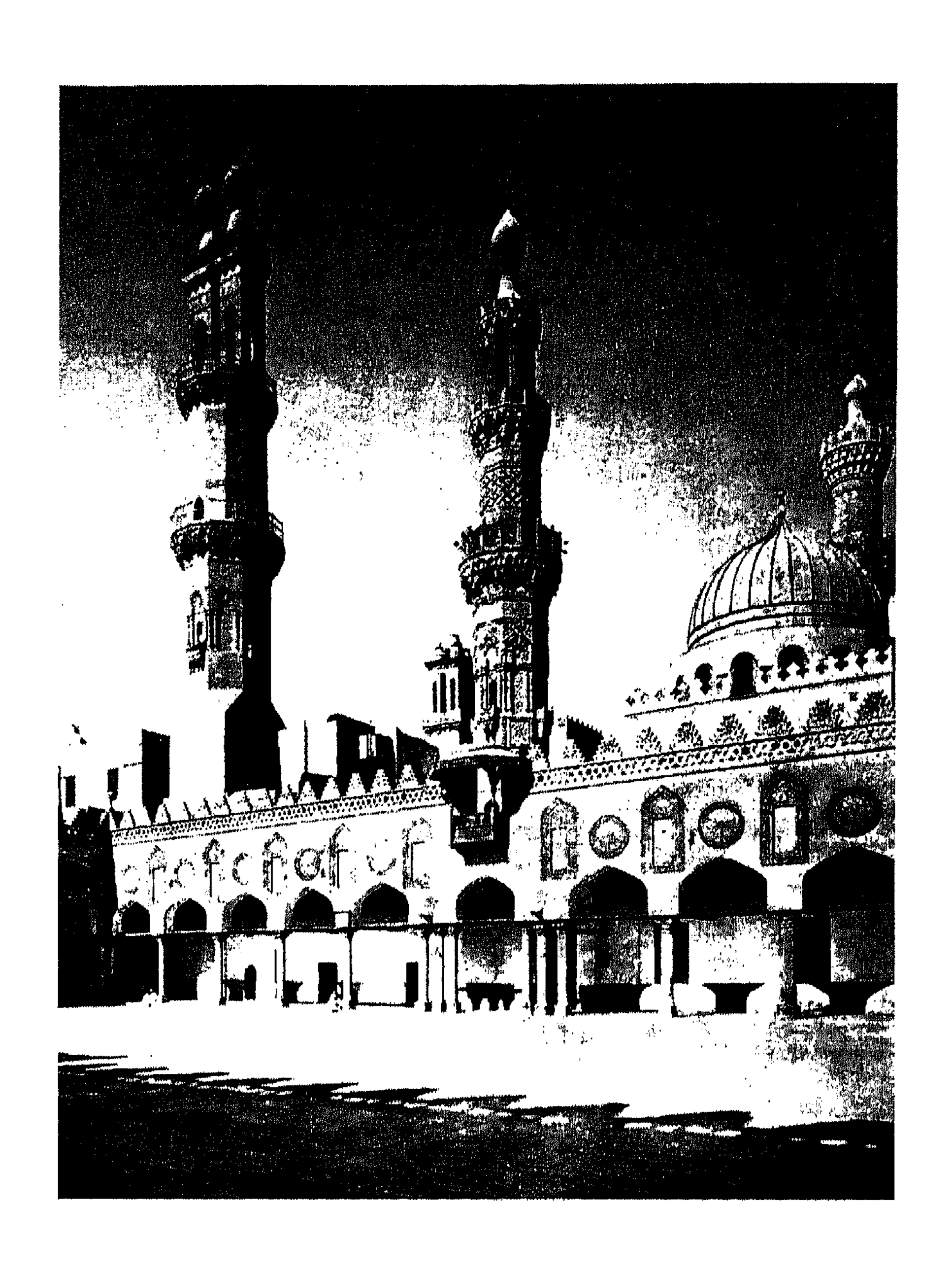



ملحق الصــور

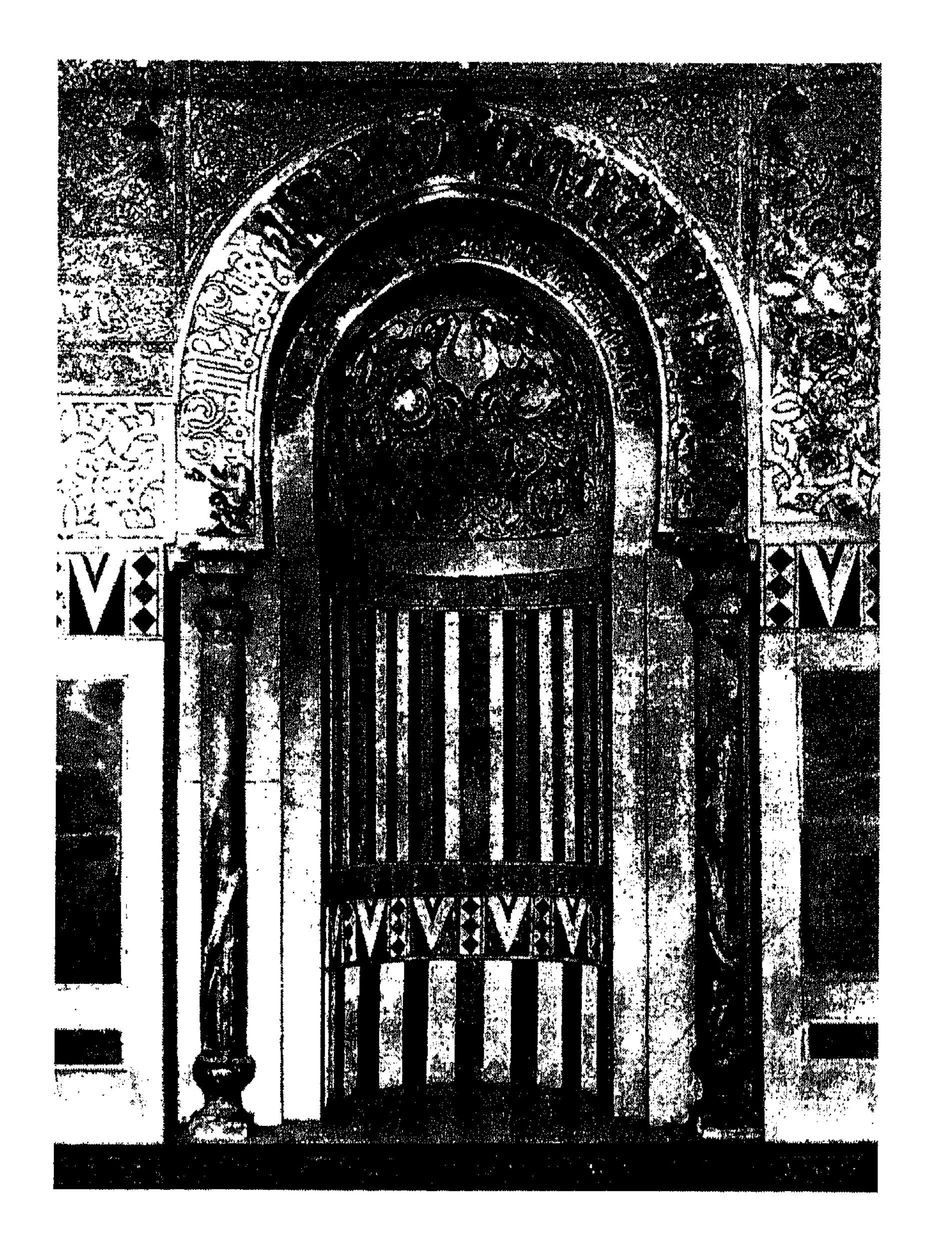


القاهرة
في عهد الفاطميين
شمال
سور جوهر القائد ٩٧٠
« بدر الجمالي ١٠٨٧
المقس
بستان كافور
القصر الشرقي الكبير
ضواحي القاهرة

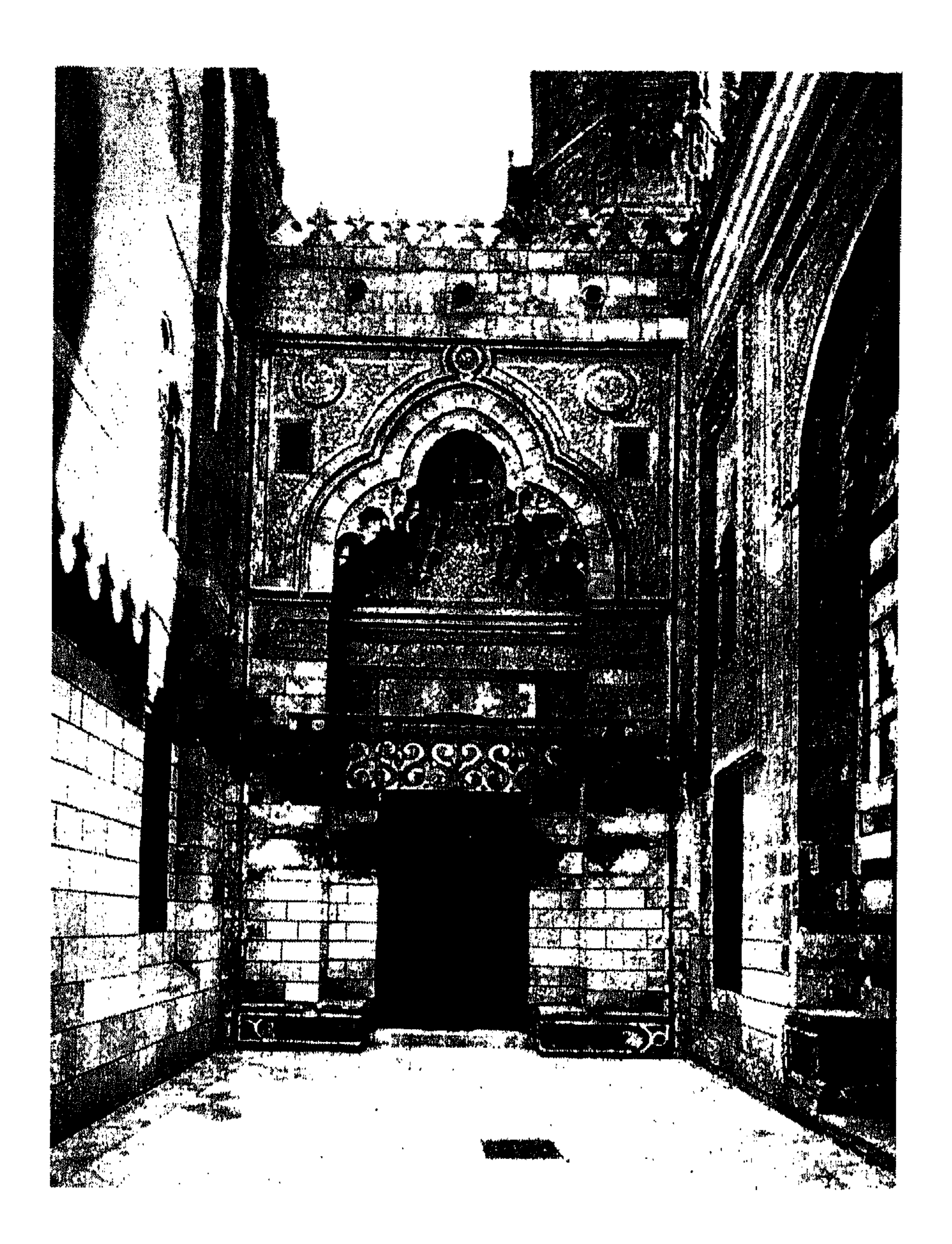




صحن الجامع الأزهر وتظهر فيه مأذنة قايتباى إلى اليمين
مأذنة الغورى إلى اليسار



الجامع الأزهر - المحراب العبيدى



الجامع الأزهر ـ مدخل قايتباى

الفهـــرس

الموضوع | الصفحة

هذا الكتاب

كم هفت القلوب إليك يا قاهرة .. كم ضحت النفوس من أجلك يا شامخة البناء ، ويا كثيرة العطاء ، ويا سكنى الصالحين والأولياء ..

يطيب لنا فى هذا الكتاب أن نحكى سيرة رجل بنى القاهرة ، وأعلى بنيانها ، وجعله مرتفعاً شامخاً . إنه القائد الملهم جوهر الصقلى صاحب الحياة الحافلة ، والجديرة بالدراسة والوقوف أمامها متأملين ما قدمته فى مختلف البلاد عامة ، وما قدمته من أجل القاهرة الساحرة العامرة بصفة خاصة . والله من وراء قصدنا المؤيد والناصر .

